اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

ك ف
٨٩٣,٣٤
ف ش
ح
٧١

حـروب دولـة الرسول

«صلى الله عليه وسلم»

حـروب دولـة الرسـول
« صلى الله عليه وسلم »

الناشر: **مكتبـة مدبـولـى الصـغير**
٤٥ شارع البطل أحمد عبدالعزيز
تليفون: ٣٤٧٧٤١٠ـ ٣٤٤٢٢٥٠
ميدان سفنكس ت: ٣٤٦٣٥٣٥
رقم الإيداع: ٩٥/٩٣٤٧
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الثانية: ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م

تصميم الغلاف: عاطف منصور
مراجعة لغوية: بهيد عبدالمعطى
الصف والإخراج الفنى: كريم كمبيوتر

سيد محمود القمني

حروب دولة الرسول

صلى الله عليه وسلم

الجزء الأول

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

الناشر: مدبولي الصغير

١١٧٩٤٩

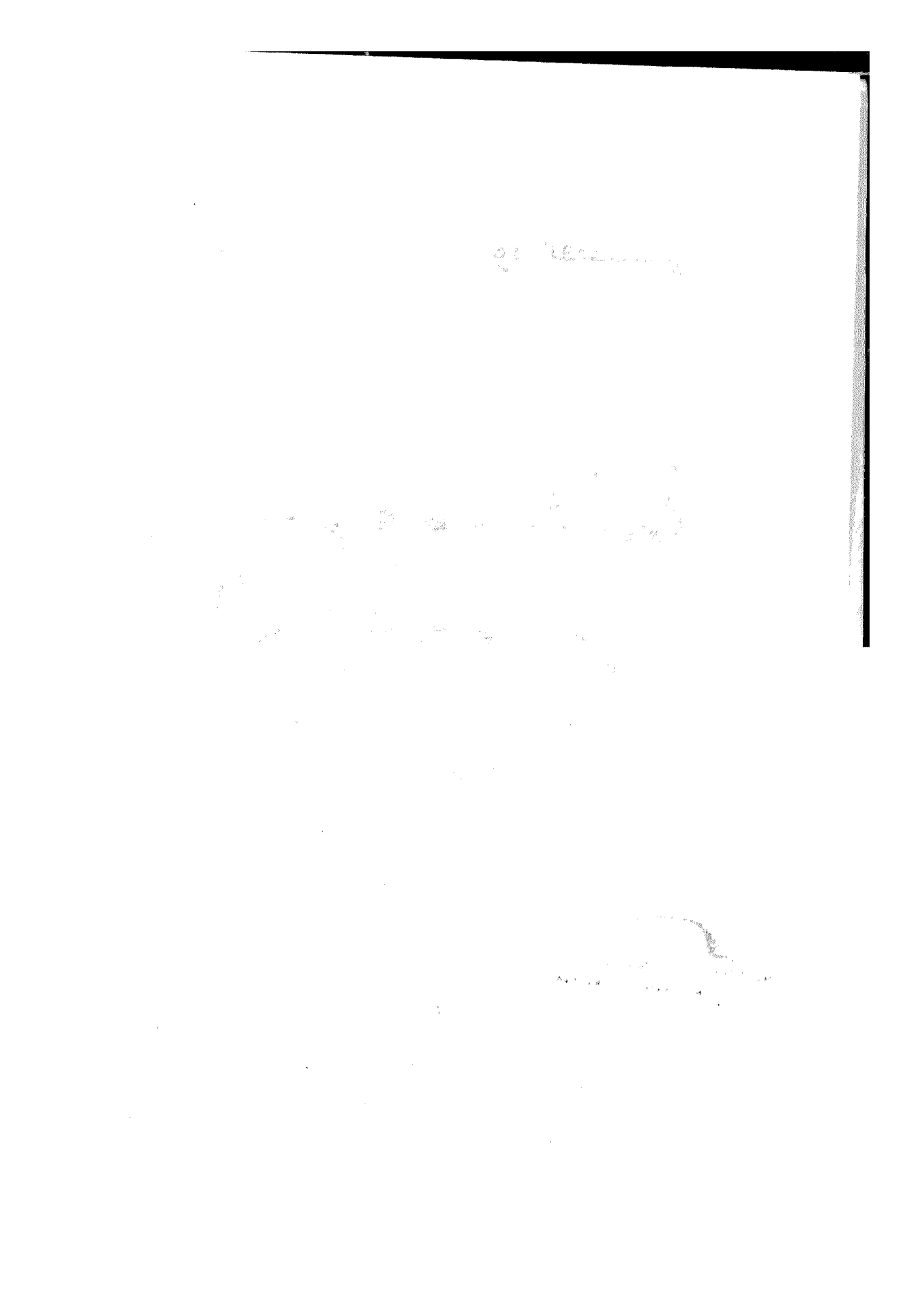

الإهـــداء:

إلى الأصدقاء الذين وقفوا إلى جوارى فى محنتى الصحية:

الأستاذ فاروق حسنى والدكتور جابر عصفور والدكتور فوزى فهمى، والأستاذة فوزية رشيد، والأساتذة عبدالعال الباقورى وصحيفة الأهالى، وجمال الغيطانى، ومصطفى بكرى، وسليمان فياض، وفتحى عامر، وعبد الغنى داود، وعبدالله الشرهان، والأصدقاء الذين أحاطونى بالحب والرعاية، كوكبة أطباء الزقازيق: الدكتور أيمن عبدالحارس والدكتور نصر السيد والدكتور أحمد والى، فكانوا إلى جوارى طوال الوقت، ومنحونى من الحب ما هو جدير بهم.

وإلى (عمال) جناح القلب بمستشفى الهرم، وإلى كل من شارك دون أن يعلمنى بدوره، وكل من كتب فى الصحف، أو وقع على بيان، أو شارك بالتمنى الطيب عن بعد.

لهم جميعا كل الحب وكل العرفان.

سـيد القمنـى

التأسيس

التقريش والإيلاف

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾

[٢٤/ المؤمنون]

حروب دولة الرسول

جزء أول

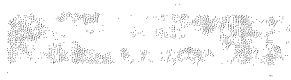

التقريـــش

يقول القاموس المحيط، إن الملأ هم الأشراف والعلية، وهم القوم ذوو الشارة والمظهر الحسن والشرف[١]، وهم فى المعجم (المنجد) أشراف القوم، الذين يملأون العيون أبهة، والصدور بهجة[٢].

هكذا وصف رجال الحكومة القرشية، فى المرحلة القبل إسلامية، فى معاجمنا اللغوية، تلك الحكومة الابتدائية، التى تشكلت من كبار تجار مكة، أثريائها وعليتها، حيث مثل كل فرد منهم قومه فى تلك الحكومة، بقدر ما يملك من إمكانات المظهر الحسن والشرف والأبهة، أى بقدر ما يملك من إمكانات مادية، وهى الحكومة التى تم تكريسها فى (دار الندوة)، وعرف التاريخ أعضاءها باسم (الملأ).

ويلخص لنا (حسين مروة) أمر ندوة الملأ بإيجاز بليغ يقول:

> إن سيطرة أرستقراطية قريش المالية والتجارية، كان لابد لها أن تُنتج بدورها مؤسستها السياسية، المعروفة تاريخياً بدار الندوة، البذرة الأولى للدولة فى مجتمع مكة، والتى كان من شأنها أن تنظم العلاقات السلطوية لهذه السيطرة، مع الفئات الاجتماعية الأخرى، الخاضعة لاستغلالها الاقتصادى، وأن تضفى على هذه العلاقة وجهها الحقوقى، الملائم للوضع التاريخى آنذاك، كما تفرض شرعيتها على تلك الفئات نفسها، التى أصبح عليها أن تخضع سياسياً، كما هى خاضعة اقتصادياً، لأرستقراطية قريش الحاكمة ـ الملأ ـ وكانت الندوة مجلساً يمثل الأرستقراطية، وفيها كانت تقضى قريش أمورها[٣].

وحكومة الملأ إذن ـ كما هو مبين ـ **كانت مجلساً سلطوياً قام فى مكة، من أجل إحكام سيطرة الأرستقراطية المكية التجارية على مختلف الشئون**، بغرض تناغمها جميعاً مع مصالحهم، بحيث يؤدى كل شأن دوره فى حماية تجارتهم، واستمرار سيولتها، وضمان أمنها، دون أى توقف يمكن أن يهددها.

---

(١) القاموس المحيط: باب الهمزة، فصل الميم.

(٢) المنجد: حرف الميم، مادة إملاء.

(٣) د. حسين مروة: النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابى، ط ٦، ١٩٨٨، بيروت، ج ١، ص ٢٣٠.

ولعل أهم الخطوات التى تمت بسبيل تأمين تلك المصالح، هى قيام مجلس الملأ نفسه، الذى ترافق مع خطوات أخرى، بدأت بالتقريش، ليتلوه الإيلاف، فكان التقريش خطوة أولى لتوحيد قبائل مكة وجمعها، أى تقريشها، وذلك زمن (قصىّ بن كلاب)، عندما استطاع مع حلفائه إجلاء قبائل (خزاعة) عن مكة، ليتمركز فيها مع أولئك الحلفاء، نتيجة مجموعة متضافرة من الظروف التاريخية، بدأت آنذاك تفعل فعلها فى جعل مكة زمن (قصىّ)، مركزاً كبيراً لاستراحة القوافل التجارية، على طريق الخط التجارى ما بين الشام واليمن، وعليه فإن نظام التقريش جاء كشكل اجتماعى، أكثر تطوراً بدرجة أعلى قليلاً، من الأنظمة القبلية المتشرذمة المتقاتلة بالجزيرة. وكلون من التنظيم الاجتماعى الذى يجمع القبائل الحليفة لقصى فى أضمومة وحزمة مترابطة بالمصلحة، مع استقلال كل قبيلة بشكلها العشائرى المألوف، وهو ما نفهمه من شرح (ابن كثير) لهذا الشكل المجتمعى التقريشى فى قوله:

> وأما اشتقاق قريش، فقيل: من التقرّش، وهو التجمّع بعد التفرّق.. وقيل سميت قريش قريشاً من التقرّش، وهو التكسّب والتجارة، حكاه ابن هشام رحمه الله، وقال الجوهرى: الكسب والجمع، وقد قَرَشَ يقرُش (نظن المقصود هنا القَرش أى الهرس بالأضراس، كما تعنى أيضاً جمع القروش أى المال). وقال البيهقى: إن معاوية قال لابن عباس: فلم سميت قريش قريشاً؟ قال: لدابة تكون فى البحر، تكون أعظم دوابه يقال لها: القرش، لا تمر بشىء من الغث والسمين إلا أكلته(٤).

وهكذا يأتى هذا التفسير الجامع، معبراً صادقاً عن حال قريش، وحال المرحلة التاريخية متضمناً حال المرحلة المجتمعية، فالتقريش تجمع للقبائل التى حملت اسم قريش بعدما كانت شراذم قبلية متناثرة متصارعة، وما جمعها إلا المصلحة المادية المشتركة، وهى التكسب المادى، ذلك التكسب الواضح أنه ناتج التجارة على الخط التجارى، والذى تمثل فى عشور جمركية تقبضها قريش نظير المرور والاستراحة فى مدينتها، للموقع المتميز لمكة على الخط التجارى الدولى، ويحمل التعريف معنى هاماً بربطه المتين والرائع لجمع الناس وجمع المال بالارتباط المصلحى، فالقرش هو مفرد القروش المجموعة، والقَرْش هو الكسب المالى، وهو فى الوقت ذاته تجمع الناس فى مجتمع مترابط (هو الكسب، وهو الجمع بعد التفرق)، ليبلغ التعريف كمال تبليغه البلاغى فى تصوير حال هذا الجمع المتكسب، واستعداده للدفاع عن

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، ط ٤، ١٩٨٨، بيروت، ج ٢، ص١٨٧.

مصالحه، وتطور الأمر إلى حدّ النهم، فهو كالقرش السمك المتوحش لا يمر بشيء إلا أكله، مما يشير بالضرورة إلى وجود فئات أخرى، سقطت فى حومة ذلك الحراك الاقتصادى الاجتماعى، وذلك فى قرن الجمع والتجمع بالكسب والتقرش وجمع القروش، مع القرش بالأضراس الذى تمثله دابة البحر.

الإيـــلاف

أما التأليف بنظام الإيلاف، فكان - فى رأينا واستنتاجنا - الخطوة الثانية والضرورية بعد التقريش، وهو ما طبقته أرستقراطية مكة القرشية بنجاح، للتأليف بين قبائل مكة التجارية أو أثرياء مكة تحديداً، وبين القبائل الضاربة على الخط التجارى الواصل بين مكة، وبين حدود الامبراطوريتين: الرومانية والفارسية، ثم تأليف ثانٍ بين قريش وبين القبائل الضاربة فى باطن الجزيرة فى خطوط فرعية، ثم تأليف ثالث بين قريش وبين الامبراطوريتين.

وبالإيلاف، وللإيلاف، كان يتم توزيع المكاسب بشكل تناسبى، بما يضمن حماية طريق الإيلاف من إغارة البدو، وتأمينه لمصلحة الجميع، وهو ما يقول فيه (المسعودى) موجزاً: «وأخذت قريش الإيلاف من الملوك، وتفسير ذلك الأمن»(٥).

وعلى الطريق التجارى وفروعه الهامة، ارتبطت قريش بالإيلاف والعهود مع شيوخ قبائل الجزيرة، شيوخ قيس، واليمامة، وتميم، وأقيال اليمن، وملوك غسان والحيرة، كما وكلوا عنهم وكلاء فى جوش ونجران، وغيرها من المواضع الهامة فى شبه الجزيرة(٦)، وقد اتبعت قريش فى تأليفها أساليب منوعة، فهناك من رضى من شيوخ البدو على الطرق التجارية بالهدايا والجعالات، بينما اتفق آخرون على حماية طريق الإيلاف الكبير نظير الاشتراك مع قريش فى تجارتها، وهو ما يتضح من إشارة (الجاحظ) لدور (هاشم بن عبد مناف) فى تأليف قبائل العرب بإشراكهم فى التجارة(٧)، وما رواه (ابن سعد) عن تأليف (هاشم) للقبائل الضاربة على الطريق

(٥) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى عبدالحميد، المكتبة الإسلامية، د. ت، بيروت ج٢ ص٥٩.
(٦) د. سالم عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب فى عصر ماقبل الإسلام، دار النهضة، ١٩٨٠، بيروت، ج١، ص٥٠٣، ٥٠٥.
(٧) الجاحظ: الرسائل، جمع ونشر حسن السندوبى، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٣، القاهرة، ص٧٠.

الشامى بحمل بضائعهم دون أجر[٨]، ثم ما ذكره (البلاذرى) عن دور (هاشم) وولده (عبدالمطلب) فى عقد المعاهدات وأخذ الحبال من ملوك روما وحمير، ودور (عبد شمس) فى تألف نجاشى الحبشة، ثم دور أخيه (نوفل) فى تألف أكاسرة فارس وأخذ عهود الأمن منهم[٩].

وهكذا، كان نظام الإيلاف، تأميناً للطريق، وطمأنة معلنة للامبراطوريتين المنتظرتين على نهاية خط طريق الإيلاف، للقوافل القادمة من مكة، بحيث ضمنت مكة بإيلافها أمان الرضى الامبراطورى عن دورها، وعن اقتدار ملئها، فى تأمين وصول المواد المطلوبة والسلع الهامة، فى مواقيتها دون تأخير، ولعل ما يعبر عن وعى العرب بهذا المعنى فى نظام الإيلاف، يتضح فى أبيات لمطرود بن كعب وهو ينشد:

يا أيها الرجل المحول رحله ... هلاّ نزلت بآل عبد مناف؟
هبلتك أمك لو نزلت عليهم ... ضمنوك فى جوع ومن إقراف
الآخذون العهد من آفاقها ... والراحلون لرحلة الإيلاف[١٠].

أما القرآن الكريم، فكان بصدق تبليغه، مفصحاً، موجزاً، مبلغاً ببلاغته أمر الإيلاف وعلاقته بالأمن، وبالبيت الإلهى المكّى، فى قول الآيات - فى سورة تحمل اسم قريش

﴿**لإيلاف قريش * إيلافهم** رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذى **أطعمهم** من جوع **وآمنهم** من خوف﴾.

وقد هيأ مكة للقيام بهذا الدور التاريخى، مجموعة متسارعة من الأحداث. وظروف تلاحقت لتتراكم على صفحة المنطقة وتتوزع على خريطتها، حيث كان مركز اليمن الزراعى والتجارى قد تهاوى قبل العصر الجاهلى الأخير بزمان، بينما تضعضعت أحوال الممالك العربية الشمالية (الغساسنة والمناذرة) فى العصر الجاهلى الأخير، قبل الإسلام بفترة وجيزة، ووقعت تحت الاحتلال المباشر من الفرس والروم، وهو ما أحدث - ولا شك - فراغاً سياسياً فى المنطقة الممتدة من سواحل المحيط الهندى جنوباً، وحتى الخط الفاصل بين الامبراطوريتين فى بادية الشام شمالاً.

وقد ساعد على رسم تلك الخريطة السياسية، انهيار مجموعة طرق أخرى لم يبق آمناً من بينها

(٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى، تحقيق أوجين متنوخ، دار صادر، ١٩٥٧، بيروت، ج ١، ص ٤٥.
(٩) البلاذرى: أنساب الأشراف، تحقيق د. حميد الله، دار المعارف، ١٩٥٥، القاهرة ج ١، ص ٥٩.
(١٠) نفسه: ص٦٠.

سوى الطريق المار بمكة، قادماً من موانىء اليمن ليتجه شمالاً، ثم يتفرع إلى فرعين نحو فارس شرقاً وروما شمالاً وغرباً فى داخل الحدود الفلسطينية والمصرية، وكان انهيار مجموعة الطرق التجارية الأخرى راجعاً إلى تلك الحرب الطويلة الضروس، التى دارت بين الفرس والروم، ومطاردة كل منهما الأخرى فى كافة المواضع الممكن الوصول إليها لقطعها، ولم يبق فى المنطقة آنذاك طريق مأمون، سوى الطريق البرى المار بمكة، لمنعته الصحراوية على غير أهله، مما انتهى به إلى طريق أوحد مؤهل للقيام بأمر تجارة العالم، وهو ما أدى إلى تحول مكة عن وضعها زمن (قصىّ بن كلاب) كمحطة ترانزيت كبرى قابضة للعشور، إلى مركز للأرستقراطية المكية التجارية فى العصر الجاهلى الأخير، حيث تمكنت تلك الأرستقراطية بتراكم رأس مال العشور والتجارات الصغيرة، من الانتقال عن قبض العشور إلى شراء البضائع القادمة من المحيط الهندى وموانىء اليمن، والاتّجار بها لحساب تلك الأرستقراطية، لتمسك عندها بعنان تجارة عالم ذلك الزمان(١١).

ولنا أن نفترض بدء ذلك التحول عن قبض العشور إلى القبض على تجارة العالم، كانت المرحلة التى عمدت فيها قريش إلى إنشاء نظام الإيلاف بعد التقريش، ففى مرحلة التقريش كانت قريش تقبض عشورها، وما كان يعنيها كثيراً أمان الطريق، فهى تتاجر تجارتها البسيطة مع القادمين والآيبين، وتأخذ العشور من السارق والمسروق، ومن ثم تطور الأمر عندما أصبحت التجارة ملكاً كاملاً لها، ذلك التطور الذى استدعى السعى الجدى لتأمين تلك التجارة بنظام الإيلاف، وهى ذات المرحلة التاريخية التى نعتقدها مرحلة الفرز للصراع التنافسى التجارى، ومن ثم السيادى، داخل مكة ذاتها، والذى انتهى، كما هو واضح بالمصادر الإسلامية، إلى سيادة مالية شبه كاملة للفرع الأموى، مع خسران واضح لأبناء عمومتهم، الفرع الهاشمى.

ولنا أن نتصور ذلك التراكم المالى وهو ينزع عن الترانزيت إلى المركزية التجارية، ينمو من خلال خبر (الواقدى) وتأكيده أنهم كانوا يربحون فى تجارتهم عن الدينار ديناراً(١٢)، حتى بلغ رأس مال بعض القوافل مائة ألف دينار للقافلة الواحدة، ويمكن أن نعلم المدى الذى وصل إليه

(١١) حول العوامل التى أدت إلى انهيار الأمن على الطرق التجارية القديمة، انظر: د. أحمد شلبى السيرة النبوية العطرة، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٢، ١٩٨٧، القاهرة، ج ١، ص ١٢٤، ١٥٣، انظر أيضاً: أحمد أمين: فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٤، ١٩٨٧، القاهرة، ص ١٢، ١٣.

(١٢) الواقدى: مغازى رسول الله، مطبعة السعادة، ١٩٤٨، القاهرة، ج ١، ص ١٥٧.

تضخم رأس المال القرشى من خبر سلعة واحدة ترفيهية كمالية، هى الطيوب، والتى كان يطلب منها الروم والفرس فى العام ما تصل قيمته إلى مائة مليون درهم(١٣).

أما قافلة (أبى سفيان) التى كانت سبباً بعد ذلك فى غزوة بدر الكبرى، فقد أسهم فيها البيت الأموى بأربعة أخماس رأس المال، وكان لأسرة (أبى أحيحة) وحدها ما يصل إلى ثلاثين ألف دينار، وهى أسرة أموية، وذلك من مجموع أموال القافلة البالغ خمسين ألف دينار.

تحريم المواسم

وإضافة إلى الإيلاف بعد التقريش، تمكنت مكة، على المستوى الداخلى للجزيرة، من استقطاب القبائل المتناثرة فى الباطن والأطراف لسوقها المركزى، بتكتيك تدفعه المصلحة يتجاوز المفاهيم الدينية القبلية المتعصبة، فقامت تستضيف فى كعبتها أرباب قبائل الجزيرة على تعددها وتناقضها، تلك الأرباب التى كانت فى نظر أصحابها أسلافاً صالحين، وكان الرب هو جد القبيلة البعيد وسيدها ورمزها، ومعبودها، وضامن وحدتها وتماسكها، فكانت تلك الضيافة لسادة القبائل ورموزها، ضيافة حسنة لكل القبائل، وسبيلاً إلى التقريب بين القبائل بتجاور الأرباب من الأسلاف، فى فناء معبد واحد، بحيث حاز كل رب نفس القدر من الحرمة، ولم تجد قبائل الجزيرة فى تلك الضيافة غضاضة، بل رحبت بدورها بتلك الخطوة وسارعت إليها، وقد بدت تسييداً أوسع، ونشراً لأمر رب كل قبيلة خارج حماه، وخارج دائرة نفوذه القبلى وحدوده الإقليمية، مع الأخذ فى الحسبان الاعتبار الأكثر أهمية، وهو انهيار الطرق التجارية الأخرى المارة بمواطن تلك القبائل فى بقاع الجزيرة، مما أدى لسقوط معابدها وكعباتها وتدنى شأن آلهتها، بفقدها الأساس الاقتصادى مع تحول التجارة عنها، إضافة إلى التنامى الذى حققته الظروف لمكة. وهو ما أضعف شأن الأسواق الأخرى إلى حد التضاؤل والتهميش(١٤).

وعليه؛ فقد كانت ضيافة الكعبة المكية للأرباب القبلية، تأليفاً آخر لقبائل الجزيرة جميعاً، وهو ما ساعد على مزيد من تمركز التجارة بمكة، مع اتصال مكة بفروع للطرق نحو الأسواق الداخلية

(١٣) أحمد عباس صالح: الصراع بين اليمين واليسار فى الإسلام، مجلة الكاتب عدد ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤، القاهرة، ص٢١، نقلاً عن سعيد الأفغانى. أسواق العرب.

(١٤) سيد محمود القمنى: الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية، دار سينا، ١٩٩٠، القاهرة، ص ٢١ : ٢٤.

الضارية فى بطن الجزيرة، وزاد فى المركزة التجارية والدينية والقبلية بل واللغوية لمكة ولهجتها القرشية، بعد أن أصبحت لغة قريش ذات السيادة والانتشار، فأصبحت مكة مزاراً لكل العرب، وحاز موسمها التجارى الأكبر (موسم الحج) مكانة لا تضارع، بعد أن أصبح موسماً لكسبهم وعبادتهم وسمرهم ومرحهم، حتى كادت مكة - على المستوى العرفى - أن تكون عاصمة لجزيرة العرب جميعاً.

وبسبيل مزيد من الحفاظ على المكاسب ودوامها، تمكن الملأ القرشى من تنظيم أسواق بعينها، فى هيئة مواسم منظمة بمواقيت، تتفق ومواسم المحاصيل، سواء فى الجزيرة أو شرق أفريقيا أو الهند، ووفق خطوط الرياح فى المحيط الهندى، وموعد وصول شحنات البحر من الهند وشرق أفريقيا إلى موانىء الساحل اليمنى، ووقت الطلب الشمالى لتلك البضائع والسلع بتقدير دقيق، يأخذ فى اعتباره أصغر العوامل، حتى طبيعة المناخ وموجات الحرارة والبرودة، مع تحريم مواقيت تلك الأسواق إيمانياً ومصلحيا، لضمان الموسم الأكبر (موسم الحج)، الذى تجمع فيه مواد بضائع الساحل اليمنى وأسواق الجزيرة الداخلية، لتشق رحلتها الصيفية إلى الشمال، بحيث أصبحت أشهر الحج والسفر الصيفى أشهراً حراماً، ثم كان فى الإمكان - للمصلحة التجارية، وحسب ظروف تطرأ أحياناً، وحسب الطلب، وتغير مواقيت السنة العربية القمرية مع السنة الشمسية الزراعية المحصولية، ولضبط الأشهر الحرام القمرية مع الرحلتين ومواسم الحصاد - تحريك تلك المواقيت، ونقل الأشهر من مواضعها بالإزاحة، فيما يعرف بنظام النسىء[١٥].

ولمزيد من الضمانات، نظم الملأ نواة أولى لقوات مسلحة من العبيد، ومن الأحابيش كانت مهمتهم الأساسية حماية أصحاب رؤوس الأموال والشخصيات الكبرى، وحراسة بيوت رجال الملأ، ثم المهمة الأساسية، وهى حراسة القوافل التجارية.

وعليه؛ فقد أخذت مكة - بتسارع - تتحول إلى حاضرة تتناقض مع البداوة والقبلية فى داخلها، كما تتناقض مع المحيط المتشرذم حولها فى جزيرة العرب، ومن ثم كان ضرورياً أن تمر مكة بتحولات بنيوية هائلة، فى تركيبتها الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، التى انتهت بها من قبائل متشرذمة، إلى قبائل متقرشة، خاضعة لرجال الندوة من حكومة الملأ، لتنضح - باشتراك المصالح - تقريشها إيلافاً على محيطها القبلى فى الجزيرة، وبخاصة القبائل التى ألفها طريق الإيلاف الأكبر.

(١٥) المسعودى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٧، ٥٨.

المتغير الاجتماعى

يسوق (ابن سعد) فى طبقاته خبراً، يوافقه عليه جميع رواة السير والأخبار، والخبر يقول: إنه حين تغلبت قريش على خزاعة، وتسلم (قصىّ بن كلاب) - بعد أن كثر ماله وعظم شرفه - زعامة قبائل مكه المتحالفة معه، التى تقرشت، قطع (قصىّ) مكة أرباعاً بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم[١٦]، وقد ذهب الكاتب (برهان الدين دلو) مذهب الباحث (حسين مروة)، فى تحديد المغزى التاريخى لهذا الحدث، بأنه «كان تصنيفاً اجتماعياً لسكان مكة، بطون قريش وحلفائها، روعى فيه الوضع المالى دون العرف القبلى، إذ جعلهم صنفاً ممتازاً أدنى أسكن فى الظواهر، وهم قريش الظواهر، وكانت قريش الظواهر متبدية أو شبه مستقرة»[١٧]، وقد ركن الكاتب هنا، فى تقديره لسوء أحوال «قريش الظواهر» المادية إلى تقرير الباحث المؤرخ (جواد على) فى مفصله عن تاريخ العرب قبل الإسلام[١٨]. ومن ثم استنتج من التصنيف المشار إليه:

> **إن الوضع المالى والتجارى لأبناء القبيلة، أصبح يحتل المركز الأول من الاعتبار**، فكان أن أصبح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار فى مقدمة قريش البطاح، لأنهم صاروا أوفر مالاً وأعظم تجارة، ثم احتلت أمية فى قريش الجاهلية الأخيرة مكان الصدارة، مذ أصبح فيهم أعظم التجار ثراء، **وبسطت سلطانها المالى والتجارى على كثير من قبائل المنطقة العربية خارج مكة**، وبفضل مركز أمية المالى والتجارى، فإن أمراء القوافل كانوا منهم[١٩].

ونرى من واجبنا هنا التوضيح - حتى لا يختلط الأمر - حيث كان بنو عبد مناف وبنو عبد الدار أبناء لقصىّ سيد مكة - المتقرشة - الأول والمطلق النفوذ، والأكثر مالاً، وكان طبيعياً أن يكون ورثته فى مقدمة قريش البطاح، وليس كما ذهب (دلو) لكون وفرة مالهم الأساسى كانت من التجارة، وإنما لورثتهم ألوية التشريف والسيادة عن سلفهم (قصى)، مما أعطاهم فرصة الحصول على النصيب الكامل من المكوس الجمركية لبضائع الترانزيت المارة بمكة، وهى الألوية التى يشرف كل منها على لون من الخدمات المأجورة، التى كانوا يؤدونها للتجار المارين بمكة

(١٦) ابن سعد: سبق ذكره، ج١، ص٧٠، ٧١.
(١٧) برهان الدين دلو: مساهمة فى إعادة كتابة التاريخ العربى الإسلامى، الفارابى، ١٩٨٥، بيروت، ص٥٩.
(١٨) د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمى العراقى، د. ت، ج٤، ص١٩٥.
(١٩) دلو: مساهمة..، سبق ذكره، ص٦٠.

بقوافلهم، والتى حملت أسماء ألوية التشريف التى نظمها (قصّى)، للحصول على النصيب الأعظم من المكوس، وتمثلت فى (السقاية، والرفادة، والحجابة، والسدانة، واللواء، والندوة.. الخ).

والاعتراض من جانبنا يقوم على حجة أن تلك المرحلة كانت قبل انتقال قريش إلى مرحلة التجارة لحسابها، إلا أن إشارة الكاتب (دلو)، التى تؤكد أن الوضع المالى لأبناء القبيلة، قد أصبح يحتل الموقع الأول من الاعتبار، فهو الأمر الذى لا يمكن النزاع حوله.

ومع ذلك الثراء الذى أصابت حظوظه أفراداً من عشائر مكية مختلفة، ومع تحول هؤلاء النفر عن قبض العشور إلى التجارة لحسابهم، **ومع حجم تلك التجارة الهائل**، كان طبيعياً، بل كان محتماً، أن تبدأ **الانقسامات الطبقية الحادة** فى الظهور بوضوح داخل القبيلة الواحدة، وهو ما انعكس بدوره على الوضع القبلى للقبائل الأخرى بالجزيرة، المرتبطة بحركة مكة التجارية، وهو ما كان العامل الأول فى **تهشيم الأسس القديمة لروابط القبيلة**، وسيولة لزوجتها الجامعة لأفرادها، نتيجة للتطور التجارى، وما صاحبه من تقسيم للعمل، وتضخم ملكيات رؤوس الأموال، مقابل فارق طبقى كبير، نتيجة لتفاوت توزيع الثروة، مع اختلاف الأوضاع والأدوار فى العملية التجارية التى تقودها مكة، أو بالتحديد نفر متبعثر فى قبائلها، شكل الأساس الاقتصادى المتين بينهم رابطة قيادية للعملية التجارية، فتوزعت الأدوار ما بين ملاك للمال، إلى أدّلاء للقوافل، وحراس مسلحين، وعمال تشهيلات للشحن والتفريغ، وآخرين يبتهلون الفرص على الطريق لتقديم الخدمات الضرورية للقوافل، فى نقاط محددة ومحطات قاموا بإنشائها على الطريق للترغيب فى الاستراحة وبيع خدمات الراحة. هذا إضافة إلى المتاجرين الصغار، وشيوخ القبائل الذين يتقاضون الإتاوات، ثم الأهم وهو انتشار التعامل النقدى بعملات الفرس والروم، وهو ما أدى جميعه لفوارق وتفاوت، **فكك بالتدريج روابط النظام القبلى القديم، نتيجة حتمية لوجود العبيد والمعدمين** على الطرف الآخر غير المستفيد من العملية التجارية القائمة داخل ذات القبيلة، ومن ثم بدأت قيم القبيلة القديمة تتراجع.

والمعلوم أن القيم القبلية القديمة، كانت تقوم على المساواة المطلقة والامتلاك الجماعى لوسائل الإنتاج والثروة، ومن ثم توافقت معها علاقات الإنتاج، فكان الولاء الجماعى للقبيلة، وتماسك الكل فى القبيلة مع أى فرد فيها مهما صغر شأنه ضد الكون جميعاً، فهى تأخذ بثأره حتى لو تآكلت جميعاً، ثم هو معها كترس فى آلة عسكرية متحركة دوماً، لا رابط لها سوى تلك اللزوجة الاجتماعية، والسلف المشترك العزيز على جميع نفوس الأفراد، فكانت القبيلة، وكان السلف، هو الوطن، وكان ذلك اللون من العلاقات الاجتماعية هو الضمان الوحيد لسلامتها كوحدة محاربة متنقلة.

ولكن بعد التطور السريع، واستقرار أكثر القبائل، خاصة القوية، على الطريق التجارى الرئيسى، أو الطرق الفرعية، وظهور الفوارق الطبقية الحادة داخل القبيلة، لم تعد القبيلة مسئولة كل المسئولية عن الفرد فيها، وبدأت تظهر حالات خلع الأفراد الذين يمكن بحمقهم جلب الضرر للقبيلة التى شرعت فى الاستقرار، فظهرت طائفة الخلعاء المتشردين، ثم من جانب آخر ظهرت جماعات الصعاليك، أولئك الأفراد الذين بدأوا بدورهم يرفضون المنطق الجديد، ويهجرون قبائلهم، وأخذ تراكم رأس المال لدى أفراد بذاتهم يفعل فعله فى تحول الولاء عن القبيلة إلى الطبقة، كما أخذت قيم الولاء الجمعى تتداح مخلفة وراءها شكلاً جديداً من العلاقات الاجتماعية الأكثر تطوراً، تمثلت فى الفردية التى اتضحت فى إمكان تحدد قيمة الفرد دون جماعة، مع تحول قيمة الشرف عن النسب القبلي وعدد النفر إلى قدر ما يملك من مال، وهو ما أفصح عن نفسه فى تكوين جيش العبيد والأحلاف والأحابيش، الذى كان مؤشراً بالغ الدلالة على بدء منطق جديد، يمكن فيه الاستغناء عن النفورة وعزة النفر القبلى، بعد أن بات ممكناً شراء النفر المسلح والمدرب، أو الحليف بالمصلحة المادية، وهو ما بدأ يخرج بالفرد عن القبيلة إلى التحالف المصلحى مع أفراد من قبائل أخرى، وهو شاهد واضح البرهنة على بدء تفجر الأطر القبلية.

وهكذا أمسى ممكناً أن تجمع المصالح بين أصحاب الثروات على تفرقهم بين قبائل مختلفة وعلى أن يجمع الشقاء بين المستضعفين على تفرقهم بين قبائل مختلفة، وهو ما يشهد عليه بدء ظهور تجمعات أكبر من القبيلة، تمثلت فى أحلاف يأتينا خبرها فى أسمائها عبر كتب السير والأخبار، مثل حلف ذى المجاز وتنوخ، وحلف قريش والأحابيش، وحلف الفضول، وحلف المطيبين، وحلف لعقة الدم، وحلف الأحلاف، وحلف الرباب، وحلف الحمس.. إلخ، لتشير الظاهرة إلى توجه اجتماعى جديد ينحو نحو التوحد على أساس من المصالح المشتركة.

لكن؛ علينا هنا أن نكون حذرين، فالمرحلة كانت مرحلة بدء، وكل تلك التطورات لم تكن تعنى تفجيراً كاملاً ومبرماً للقديم، لأنه بقليل من الجهد، يمكننا - ونحن ندرس مجتمع مكة تحديداً - أن نلحظ المحتوى الطبقى الجديد، وهو يتخفى برداء أو شكل قبلى عصبى عشائرى قديم، بمعنى أن الجديد قد تزيّا بالقديم، وسعت كل مجموعة من الأثرياء إلى ربط أفراد قبيلتهم بهم وبمصالحهم، بالعطاء والمنح وإشراك صغار تجار القبيلة فى قوافلهم التجارية، مما أسفر فى المجتمع المكى تحديداً عن محتوى طبقى يتخفى داخل نسق عشائرى، تمثل فى انقسام المجتمع القرشى إلى حزبين كبيرين قبليين، بين أبناء العمومة، أو إلى طبقتين ولكن بملامح وقسمات

قبلية، يمثلهما البيت الأموى الثرى، والبيت الهاشمى الذى غلب عليه الفقر، وبخاصة فى بيت عبد المطلب، وإن كان من العلمية التوضيح أن ذلك الانقسام بدوره لم يكن تام التحديد بفواصل قاطعة مانعة، بل كان يتضمن بعض التداخل الطبقى بين العشيرتين، فضمت الطبقة الثرية أفراداً من هاشم، مثل العباس بن عبد المطلب، وأبو لهب (عبد العزى)، يشاركون أمية المصلحة الطبقية، ولذلك فإن المحتوى، وإن تغير، فقد ظل يتخفى بأردية عصبية النسق، وظل الشكل القديم محافظاً مع تغير المحتوى، لقد كانت المرحلة مرحلة بدء، بدء تحول، بدء طور انتقالى.

ويمكن للمطالع فى تلك المرحلة، أن يلحظ أمراً له مغزاه، فسيجد فقر هاشم وبنى عبد المطلب طارئاً جديداً، وهو ما يدفع إلى افتراضه متصلاً بالمنافسة التجارية التى يقع فيها البعض بالضرورة خاسراً، كما يفترض اتصاله بالصراع بين البيتين الهاشمى والأموى، الذى يضرب بجذوره فى الماضى إلى أيام الجد (قصىّ بن كلاب)، وهو الصراع الذى استعر حول حيازة ألوية التشريف السيادية، والتى بلا جدال كانت سلطوية فى بعض مناحيها كما فى لواء (الندوة) ولواء (اللواء)، وهى الألوية التى استحر صراع حرور حولها لأنها كانت عاملاً حاسماً فى القسمة الطبقية. بينما اعتمد الأمويون فى تقوية سلطتهم ونفوذهم على مزيد من التراكم الثروى، وعقد الموادعات والتحالفات التى تضمنها المصالح المادية المشتركة مع قبائل أخرى، فإن الهاشميين لجأوا إلى كسب مزيد من التشريف وألويته بتكتيك آخر، زاد فى فقدهم للأساس المادى باستمرار، لكنه كان منحى يهدف إلى كسب ولاء القبائل بالعطاء وبالبذل، لكسب الشرف الرئاسى بالجود والفضل، فهذا هاشم، يضع ثروته جميعها تقريباً فى قافلة قوامها الزاد، لفقراء مكة والقبائل، فى سنوات المجاعة المسنتة، وقام يهشم الثريد باللحم للجوعى بيديه، لذلك لقب هاشماً، أما اسمه الحقيقى فكان (عمرو)، وفى ذلك يقول (ابن كثير):

.. هاشم واسمه عمرو، سمى هاشماً لهشمه الثريد مع اللحم لقومه فى سنى المحل، كما قال مطرود بن كعب الخزاعى فى قصيدته..

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف(٢٠)

وإشارة (مطرود بن كعب) هنا، لعلاقة هاشم برحلتى الشتاء والصيف، إضافة لما سبق وأشرنا

(٢٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٣٦.